جنـــاية أحمد أمين
على الأدب العربى
للدكتور زكى مبارك
— ١١ —

لا يريد الأستاذ أحمد أمين أن يفهم أن النقد من علائم الصداقة للحقائق وليس من علائم العداوة للأشخاص ، ولا يريد أن يفهم أن ما بيننا وبينه من صداقة لا يجب أن يتعرض للزوال بسبب هذه المقالات التى فرضها الضمير والواجب ، وكان خليقاً بأن يفهم وحى الضمير والواجب

ولو قد فهم هذه البديهيات لما استباح لنفسه أن يقول :

« كل الصلات بيننا مفقودة ، فلا صلة بين الأستاذ وطلبته إلا الدرس ، ولا بين الأديب وقرائه إلا صلة القراءة إن كانت ، ولا صلة بين الأدباء أنفسهم إلا صلة السباب ، فإن لم يكن سباب فرياء... »

وهذه الكلمات تدل على أن صديقنا أحمد أمين قد ضاق ذرعاً بدنياه منذ اليوم الذى رأى فيه لأول مرة كيف توضع منزلته الأدبية فى الميزان

فالأساتذة عنده قد انقطع ما بينهم وبين تلاميذهم ، والكتاب قد انفصم ما بينهم وبين قرائهم ، أما الأدباء فما بينهم فيتعاملون على أساسين اثنين : السباب والرياء

وكذلك يرانا من السبابين ، ويرى أصحابه من المرائين !

والأستاذ أحمد أمين متشائم إلى أبعد الحدود . ولو شئت لنبهته إلى خطأ هذا التشاؤم فأكدت له أن الأدباء عندنا أحسن حالاً مما يتوهم ، فقد كتب إلى كثير من أصدقائه وتلاميذه يرجونى أن أترفق فى النقد ، وشهد ناس بأنه كان حسن النية فيما كتب عن الأدب العربى ، ولم يكن إلا مجتهداً خانه التوفيق ، وللمجتهد أجرٌ حين يخطئ وأجران حين يصيب

وقد هممت بالتجاوز عن جناية هـذا الصديق على الأدب العربى ليقضى بقية هذا الصيف فى هدوء وأمان ، وليجد الفرصة لمناجاة (بحر العرب) وهو يقتعد صخرة المكس ، ولكنى تذكرتُ أن هذه المقالات لا تخلو من فوائد أدبية ، وتذكرت أنه على كل حال من طلاّب الحقائق ، وطالب الحقيقة قد يشرب من أجلها العلقم والصاب

* * *

وأرجع إلى حديث اليوم فأقول :

إن الأستاذ أحمد أمين يرى أن ابن خفاجة لم يتذوق الطبيعة وإن اشتهر بوصف الطبيعة

وليس من المستغرَب أن يقف أحمد أمين من ابن خفاجة حيثُ وقف ، فهو على فضله لا يتذوق الشعر إلا فى النادر القليل

فكل أديب فى الدنيا حدثته نفسه بأن ينظم من الشعر بيتاً أو بيتين ، حتى الدكتور طه حسين ، فقد كان له فى مطلع حياته غرامٌ بصوغ القريض ، وسنعرض للمجهول من حياته الشعرية بعد حين أما أحمد أمين فلم يفكر يوماً فى نظم الشعر

والواقع أن عظماء الكتّاب فى جميع البلاد كانت لهم نزعات شعرية ، لأن للشعر مزية قوية فى تكوين الأسلوب ، وهو الذى يروض الكاتب على خلق الصور والإحساس بالرنين

والكاتب الحق هو الذى يعانى من المكاره ما يعانيه الشاعر ، وقد أخطأ أبو هلال حين توهم أن النثر كلام غير منظوم ، مع أن أبا هلال كان من أهل البصر بأسرار البيان

* * *

مالى ولهذا ؟

أنا أريد أن أنصف ابن خفاجة الذى ظلمه الأستاذ أحمد أمين

كان ابن خفاجة يسمّى « الجنّان » وهى تسمية تشهد لأسلافنا بسلامة الذوق . وكان يسمّى « صنوبرىّ الأندلس » كان ابن خفاجة جنّاناً ، لأنه قضى دهره فى وصف الرياض

ولا سيما البحث عن الحق فى أمور حياة الناس التى تتحكم فيها الأهواء والأوهام ، وقد يحسب الساذج أن الحق فى حياة الناس كالحق فى علم الحساب بمقدار معين لا شك فيه ولا تغير ، ولكن الساذج إذا اختبر الحياة واستطاع أن يقضى بخبرته على سذاجته علم أن أحوج الناس إلى مظاهر الحق هم أهل الباطل ، ومن هذه الحاجة نشأ سعارهم ، ولم ينشأ ذلك السعار من شدة الإخلاص للحق بل من شدة شعورهم أنهم على باطل يحتاج إلى مظاهر الحق

عبد الرحمن شكرى

والبساتين ، وكانت جنته هى الأندلس وقد فضلها على جنة الخلد ، ومن أجل ذلك اتهمه بعض معاصريه بالمروق حين قال :

يا أهل أندلس لله دَرُّكمُ ماء وظلٌّ وأشجارٌ وأنهارُ
ما جنّة الخلد إلا فى دياركمُ ولو تخيرت هذى كنت أختارُ
لاتحتشوا بعدها أن تدخلوا سقراً فليس تدخل بعد الجنة النارُ

والحق أن ابن خفاجة فُتِن بمناظر بلاده أشد الفتون ، فكان يترصد الفرص لوصف ما ترى العيون أو تحسُّ القلوب بتلك البلاد

وكان فى شعره ونثره قيثارة تجود بأعذب الألحان فى وصف الأشجار والأزهار والأنهار والسواقى والسحائب والبروق

وقد ظل ابن خفاجة مفتوناً بوصف الطبيعة نحو خمسين سنة فهل يسوغ لإنسان أن يقول بأنه لم يتذوق الطبيعة فى كل ذلك الأمد الطويل وهو يتغنّى بها صباحَ مساء ؟

وكيف وكان ابن خفاجة مُرهف الإحساس إلى حدّ الخبال ؟

إن ابن خفاجة هو الشاعر الذى تفرّد بالحنان إلى الطبيعة فى جميع النواحى الشعرية ، حتى فى قصائد الرثاء ، فكيف يجوز القول بأنه وصف الطبيعة بلا وعى ولا إحساس ؟

يضاف إلى ذلك أن ابن خفاجة عُرف بين معاصريه بالزهد فى مدح الملوك والترفع عن جوائزهم السنيّة ، فى زمن كان فيه المديح مذهباً لا يغضّ من أقدار الشعراء ، ولا يعرّضهم لسفاهة القيل والقال ، فاتسع وقته لمناجاة عرائس الشعر فى هدوء وصفاء

إن ابن خفاجة صاحب مذهب فى الشعر العربى ، ومنزلته فى وصف الرياض لا تقلّ عن منزلة أبى نواس فى الخمريات والشريف الرضى فى الحجازيات

ومن الذى ينكر قيمة الشاعر الذى يقول :

لله نهرٌ سال فى بطحاء أشهى وُروداً من لَمَى الحسناء
متعطفٌ مثل السوار كأنهُ والزهر يكنفه مجرُّ سماء
قد رقّ حتى ظُنّ قرصاً مُفرغاً من فضة فى بُردة خضراء
وغدت تحفّ به الغصون كأنها هدبٌ تحفّ بمقلة زرقاء
ولطالما عاطيتُ فيه مدامةً صفراء تخضب أيدىَ الندماء
والريح تعبث بالغصون وقد جرى ذهب الأصيل على لُجين الماء

وكيف يتهم فى وصف الطبيعة من يقول :

حثّ المدامة والنسيم عليلُ والظل خفّاقُ الرواق ظليلُ
والدَّوْر طرفٌ قد تنبه دامعٌ والماء مبتسمٌ يروق صقيل
وتطلعتْ من برق كل غمامة فى كل أفق رايةٌ ورعيلُ
حتى تهادى كل خوطة أيكة ريّا وغصّتْ تلعةٌ ومسيل
فالروض يهتز المعاطف نعمةً نشوان يعطفه الصبا فيميل
ريّان فضّضه الندى ثم انجلى عنه فذهّب صفحتيه أصيل
وارتد ينظر فى نقاب غمامة طرفٌ يمرّضه النعاس كليل
ساجٍ كما يرنو إلى عوّاده شاكٍ ويلتمس العزيزَ ذليلُ

وهذا شعرٌ يفسده الشرح والتفسير والتحليل

وهل تحتاج محاسن هذه الأبيات إلى من يقيم عليها الدليل ؟

ومن الذى ينكر فراهة الفتون فى الأبيات الآتية :

وأغيد فى صدر الندىّ لحسنه حلىٌّ وفى صدر القصيد نسيبُ
من المِيف أما ردفه فمنعّمٌ خصيبٌ وأما خصره فجديب
يرفّ بروض الحسن من نور وجهه وقامته نُوّارةٌ وقضيب
جلاها وقد غنّى الحمام عشيّةً عجوزاً عليها للحَباب مشيب
وجاء بها حمراء ، أما مزاجها فماء ، وأما ملؤها فلهيب
على لجة ترنيحُ ، أما حَبابُها فنورٌ ، وأما موجها فكثيب
تجافتْ بها عنا الحوادث برهةً وقد ساعدتنا قهوةٌ وحبيبُ
وغازلنا جفنٌ هناك كنرجس ومبتسمٌ للأقحوان شنيب
فلله ذيلٌ للتصابى سحبتُهُ وعيش بأطراف الشباب رطيب

أرأيت كيف غنّى الشاعر فى الطبيعة فجعلها أصل الحسن والفتون ؟

أرأيت كيف غرق هذا الشاعر فى بحار الصباحة واللاحة ، وكيف رأى الزهر والماء أصلاً لكل مليح وجميل ؟

وما رأى الأستاذ فى الأبيات الآتية :

وصقيل إفرند الشباب بطرفه سيفٌ وللخطب الحسام ذُبابُ
يمشي الهوينا نخوةً ولربما أطَرَتْه طوراً نشوةٌ وشباب
شتى المحاسن ، للوضاءة ربطة أبداً عليه ، وللحياء نقاب
ويعطفيه للشبيبة منهلٌ قد شف عنه من القميص سراب
عَبَر الخليج سباحةً فكأنما أهوى فشقّ به السماء شهاب
لقد احتللت بشاطئيه يهزنى طرباً شباب راقنى وشراب
وانساب بى نهر يعب وزورق فتحملتنى عقرب وحُباب
وركبت دجلته يضاحكنى بها فرحاً حبيب شاقنى وحَباب

تجلو من الدنيا عروساً بيننا حسناء ترشف والمدام رُضاب
ثم ارتحلتُ وللسماء ذؤابةٌ شهباء تخضب والظلام خضاب
تلوى معاطفي الصبابة والصبا والليل دون الكاشحين حجاب
حيث استقل الجسر فوق زوارق نسقت كما تتواكب الأحباب

فهل فكر صديقنا أحمد أمين في وصف السباحة وقد سبقه إليها ابن خفاجة بنحو تسعة قرون ؟

إن الذي عجز عن وصف الطبيعة هو الذي يصطاف بالأسكندرية كل سنة ولم يفتح الله عليه بغير القول بأنه جلس على صخرة المكس ليأكل السمك المالح ، وليفكر في مصير الشمس بعد الغروب ، وليقول إنه تحاور مع هيان بن بيان ! !

يقول أحمد أمين إن ابن خفاجة لم يتذوق الطبيعة ، فهل استمع إليه حين يقول :

ربما استضحك الحباب حبيبٌ نفضتْ ثوبها عليه المدامُ
كلما مرَّ قاصراً من خُطاه يتهادى كما يمرّ النعام
سلم الغصن والكثيب علينا فعلى الغصن والكثيب سلامُ

وهل استمع إليه حين يقول :

أبى البرق إلا أن يحن فؤاد ويكحل أجفان المحب سهاد
فبت ولى من قانئ الدمع قهوة تدار ، ومن إحدى يدى وساد
تنوح لى الورقاء وهى خليـة وينهل دمع المزن وهو جماد
وليلٍ كما مدَّ الغراب جناحه وسال على وجه السجل مداد
به من وميض البرق والليل فحمة شرارٌ ترامى والغمام زناد
سريتُ به أحْنيه لا خيّة السُّرى تموت ولا مَيْتُ الصباح يعاد
يقلب منى العزم إنسان مُقلةٍ لها الأفق جفنٌ والظلام سواد
يخرق لقلب البرق خفقة روعة به ولجفن النجم فيه سهاد[1]
سحيقٌ ولا غير الرياح ركائبٌ هنـاك ولا غير الغمام مزاد
كأني وأحشاء البلاد تجنني سريرةُ حبٍّ والظلام فؤاد
ولما تفرّى من دجى الليل طحلبٌ وأعرض من ماء الصباح ثماد
حفنتُ وقد ناح الحمام صبابةً وشُقّ من الليل البهيم حداد
على حين شطّت بالحبائب نيّةٌ وحالتْ فيافٍ بيننا وبلاد

* * *

ومن مزايا ابن خفاجة أنه يتمثل الطبيعة في حركة وحياة ، فيراها ترضى وتغضب ، وتضحك وتعبس ، كأن يقول :

عاط أخـلاّءك المداما واستسق للأيكة الغماما
وراقص الغصن وهو رطبٌ يقطرُ أو طارح الحماما
وقد تهادى بها نسيمٌ حيَّتْ سليمى بها سلاما
فتلك أفنانها نشاوى تشرب أكوابها قياما

وكأنْ يقول :

ألقى العصافى حيث يعثُر بالحصى نهرٌ وتعبث بالغصون شمالُ
وكأن ما بين الغصون تنازُعٌ فيه وما بين المياه جدال

وكأنْ يقول :

أخذ الربيع عليه كل ثنيةٍ فبكل مرقبةٍ لواه شقيق

فهو في هذه الأشعار يمنح الطبيعة من الحياة والحركة ما يماثل شمائل الأحياء

وأريد أن أقول إن الطبيعة في نفس ابن خفاجة لها عزيمة وإرادة وقدرة وعبقرية ، فهي تصنع ما تصنع عن نظرٍ ثاقب وقلبٍ مشبوب ، هي نفس حساسة ، تشعر وتُدرك ، وتُفيض البؤس والنعيم على الأحياء بإرادة وعزم وإحساس

وقد وقع في كلام الشعراء ما يشابه هذه المعاني ، ولكن ابن خفاجة أكثرهنا إكثاراً مميّزه بالتفوق والتفرد ، فهو أوحد الناس في بابه بلا جدال

وكان ابن خفاجة يُقسم بما في الطبيعة من أنهار ورياض وأزهار وأنداء ومباسم وعيون ، فيقول :

أما والتفات الروض من أزرق النهر وإشراق جيد الغصن في حلْية الدهر
وقد نَسَمتْ ريح النعامى فتنبّهتْ عيونُ الندامى تحت ريحانة الفجر

وهي قصيدة طويلة امتزجتْ فيها نفس الشاعر بأسرار الطبيعة أشدّ امتزاج

والطبيعة تواجه ابن خفاجة حيثما تلفّت ، فهو يراها في كل مكان ، وانظر كيف يقول :

يا ربَّ ليلٍ بتُّهُ وكأنه من وَحفِ شَعرك
تهلُ مزنة دمعتي فيه ويندَى نَور ذكرك
أتبعتُ فيه وقد بكيت عقيق خدك دُرَّ ثغرك
وشرقتُ فيك بعبرةٍ قد وردتها نار هجرك
فكأنما ينفضّ عن حَبَبٍ لها رمان صدرك
ولربَّ ليل قد صدعْتُ ظلامه بجبين بدرك

(١) الخرق — بالفتح — الأرض الواسعة تتخرق فيها الرياح

ولهوتُ فيه بدُرَّةٍ مكنونةٍ في حُقِّ خِدرِك
تَندَى شقائق وَجنتيك به وتَنفَحُ ريح نَشرك
وقد استدار بصفحتَيْ سوسانِ جيدك طَلُّ درِّك
حيث الحبابة دمعةٌ تجرى بوجنة كأس خمرك
وتهزُّ منك فتنثنى بقضيب قدِّك ريح سكرك

وهو فى هذه القصيدة يخلع محاسن الطبيعة على الملاح ، وقد يخلع محاسن الملاح على الطبيعة فيقول :

وكأنما حَدَر الصباح قناعها عن صفحة تندَى من الأزهارِ
فى أبطحٍ رضعتْ تنور أقاحه أخلاف كل غمامةٍ مدرارِ
نثرتْ بحجر الأرض فيه يد الصَّبا
دُرر الندى ودراهم النُّوار
وقد ارتدى غصن النقا وتقلدت حَلْىَ السحاب سوالف الأنهار
فجلت حيث الماء صفحة ضاحك جَذِل وحيث الشط بدء عذار
والريح تنفُض بكرة لِمَمَ الرُّبا والطلُّ ينضحُ أوجه الأشجار
وأراكةٍ سجع الهديل بفرعها والصبحُ يسفر عن جبين نهار
هزَّت له أعطافها ولربما خلعتْ عليه مُلاءة الأنوار

وهذا والله أنفس ماقيل فى اتصال الأحاسيس بغرائب الوجود وأشعار ابن خفاجة تشهد بأنه كان يحتفل بالمعانى كل الاحتفال وكان يرى شعره نفحة من نفحات الجمال ، كأنْ يقول :

تعلقتُه نشوان من خمر ريقه له رشفها دونى ولى دونه السكر
ترقرق ماء مقلتاى ووجهه ويُذْكى على قلبى ووجنته الجمر
وطبنا مما شعراً وثغراً كأنما له منطق ثغر ، ولى ثغره شعر

وقد توجَّع ابن خفاجة لضياع الشباب أشد التوجع ورأى فى ملاحة الطبيعة عزاء عما ضاع من سماحة الملاح ، فقال :

وكل امرئ طاشت به غِرة الصِّبا
إذا ما تحلَّى بالمشيب تحلَّما
فها أنا ألقى كل ليل بليلةٍ من الهم يستجرى من الدمع أنجما
وأركب أرداف الرُّبا متأسفاً فأنشق أنفاس الصبا متنسِّما
وأرشف نَوْر الطل من كل وردةٍ مكان بياض الثغر من حوَّة اللمى

وهو بهذه الأبيات يجعل الجمال الإنسانى أجمل ما فى الطبيعة من ألوان ، وهى نظرة سليمة لا ينكرها غير الذين يرون الشجرة والزهرة أصلاً لكل جمال

وكان ابن خفاجة فى أيام توجعه على صباه يتمنى لو يعرف مصير النفس بعد الموت ، كأن يقول فى رثاء بعض الأصدقاء :

كنا اصطحبنا والتشا كلُ نسبةٌ
حتى كأنا عاتقٌ ونجادُ
ثم افترقنا لا لعودة صحبة حتى كأنا شملة وزناد
يا أيها الثاوى ولست بمسمع سكّن القبور وبيننا أسداد
ما تفعل النفس النفيسة عندما تتهاجر الأرواح والأجساد
كُشِف الغطاء إليك عن سر الردى
فأجبْ بما تندى به الأكباد

وهى لفتةٌ فلسفية لاذ بها شاعرنا شوقى فى أكثر قصائد الرثاء

أما بعد فقد كنا نحب أن نذكر شواهد من نثر ابن خفاجة تمثِّل مُيامه بالطبيعة والوجود ، ولكنا رأينا الدكتور ضيف سبقنا إلى ذلك فى كتابه « بلاغة العرب فى الأندلس » ونحن نبغض الحديث المعاد

وما الذى يوجب أن نلحّ فى شرح مذهب ابن خفاجة وهو معروف لجميع الناس ؟ لقد أردنا أن ننتهز الفرصة فنمتع أنفسنا بالنظر فى ديوان ابن خفاجة من جديد ، ونذكر به الشبان الذين شغلتهم عنه ملاهى العصر الحديث

ويدعونى الواجب فى ختام هذا المقال إلى الثناء على أديبين فاضلين يهمان بديوان ابن خفاجة ويعدان له دراسة أدبية تحفظ مكانه فى التاريخ. أما الأديب الأول فهو عزيز عبد السلام فهمى. وأما الأديب الثانى فهو جاسم محمد الرجب؛ وأولهما صديق عرفته بكلية الآداب فى القاهرة ، وثانيهما صديق عرفته بدار المعلمين العالية فى بغداد

فمتى تظهر جهود هذين الأديبين فى إحياء ذلك الديوان ؟

لقد ظهر ديوان ابن خفاجة بالقاهرة منذ اثنتين وسبعين سنة ، فكيف جاز ألا يطبع مرة ثانية بعد ذلك الأمد الطويل العريض ؟

إن اللغة العربية لغة حية وقراؤها يشارفون المئة مليون ، فكيف زهدت تلك الملايين فى ذلك الشعر النفيس ؟ !

إن ديوان ابن خفاجة وصل إلى أقصى بقاع الشرق الإسلامى قبل ظهور المطابع ، فكيف يحجب اليوم بعد الانتفاع بالمطبعة السريعة والبريد المضمون ؟

ومن أعجب العجب أن يتولى تزهيد العرب فى آثار أسلافهم رجل تعرفه كلية الآداب التى توجب على أبنائها أن يتعرفوا إلى آثار القدماء من الرومان واليونان !

ولكن صبراً فستهتدى كلية الآداب بعد حين ، وسترجع إلى سيرتها الماضية يوم كانت مثابة القلوب والعقول .

(فحديث شجون)

زكى مبارك